

طريق طنجة تطوان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

Tangier-Tetouan Road in the Nineteenth and Early Twentieth Century

لم تحظ شبكة الطرق في المغرب في فترة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وبالأخص طريق طنجة تطوان، باهتمام الباحثين. لذا تسعى هذه الدراسة، أولاً في المقدمة العامة، لإبراز وضعيّة الطرق في المغرب في هذه الفترة الزمنية، وإلقاء الضوء على مكانة هذه الشبكة الطرقية ودورها في التاريخ المغربي. وتستعرض الدراسة الطرق الرئيسية في المغرب قبل الاستعمار، ثمّ تتطرق إلى المحور الأساس الخاص بطريق طنجة تطوان، وتستعرض ما ورد بالأخص في كتابات الرحالة والمستكشفين الأوروبيين في القرن التاسع عشر، ثمّ تتعرّض للحديث عن المرافق الموجودة في هذا الطريق كفندق "عين الجديدة"، ونظام الحماية الذي كانت توفره القبائل للمسافرين، لتنتهي إلى الكشف عن الأحداث التي شهدتها طريق طنجة تطوان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وفي فترة الاحتلال الإسباني لمنطقة الشمال المغربي.

كلمات مفتاحية: الزطاطة، الأمن، الطرق، طنجة، تطوان.

The 19th and early 20th century Moroccan road network, especially the Tangier-Tetouan Road, has not received much attention from researchers. This study thus highlights the condition and status of this road network and its role in Moroccan history. The study reviewed the main roads in Morocco before colonialism, then touched on the main axis of the Tangier-Tetouan road. The paper reviews the writings of European travelers and explorers, before exploring the facilities on this road such as the Ain El Jadida Hotel, and the protection system that the tribes provided to travelers, and finally unpacking the events that took place on the Tangier - Tetouan road in the second half of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century, during the Spanish occupation of northern Morocco.

Keywords: Zatata Protection Payment, Security, Roads, Tangiers, Tetouan.

* أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة عبد المالك السعدي في تطوان، المغرب.

Professor of Contemporary History at Abdelmalek Essaâdi University in Tetouan, Morocco.

a.hamman@uae.ac.ma

مقدمة

تكاد تنعدم الدراسات المغربية حول الطرق والمسالك في المغرب في فترة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إلا شذرات قليلة متفرقة⁽¹⁾. بينما في المقابل نجد أن الكتابات الأوروبية اهتمت بالطرق في المغرب سواء من البعثات السفارية أو من لدن الرحالة والمستكشفين. ولذلك، لا مفر للباحث المهتم بالكشف عن وضعية الطرق في المغرب في هذه الفترة التاريخية من الاعتماد، بصفة أساسية، على المراجع والكتابات الأجنبية التي تمنحه معطيات ومعلومات وافرة حول الموضوع.

تجمع الكتابات الأجنبية على أن الطرق في المغرب قبل الاستعمار كانت عبارة عن مسالك وممرات مبلطة وغير معبّدة تفتقر إلى العناية والصيانة⁽²⁾، ويعترضها كثير من البحيرات والأنهار والممرات المائية، التي يجري اجتيازها عبر معابر مشيًا على الأقدام أو سباحة أحيانًا، نظرًا إلى انعدام القناطر فوق هذه الأنهار⁽³⁾. وفي موسم الفيضانات والسيول كان المسافرون مجبرين أحيانًا على نصب خيامهم والانتظار لمدة خمسة أيام إلى ستة قبل استئناف السير⁽⁴⁾.

تفتقر هذه الأحكام التي أصدرها الأوروبيون إلى بعض الحقائق، فمن المعلوم أن المغرب لم يعرف الطرق المعبّدة على الطريقة الحديثة إلا بعد خضوعه للاستعمار الأجنبي نظرًا إلى حاجة المستعمر إلى طرق معبّدة وواسعة وفقًا لغاياته السياسية والعسكرية والاقتصادية⁽⁵⁾. غير أنه كان يتوفّر على مسالك وطرق عديدة تسلكها القوافل، ثم إن المخزن وفي مقدّمته السلطان كان يقوم بتنقلاته وحركاته عبر مختلف مناطق البلاد، فكان في حاجة إلى هذه الطرق الواضحة المعالم، وفي هذا الصدد كان كثيرًا ما يرسل التقنيين لإصلاح الطرق⁽⁶⁾.

1 من بين الدراسات التي خصصت حيّزًا لمسألة الطرق والمسالك في المغرب نخص بالذكر الدراسة التي أنجزها عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في المغرب ما قبل الاستعمار** (الدار البيضاء: دار توبقال، 2009)، حيث ركّز الباحث على ظاهرة اجتماعية هي "الزطاطة" ومن خلالها يبيّن شبكة المسالك والطرق في المغرب واتخذ أمن الطرق قضية أساسية.

2 على سبيل المثال ما قاله شارل دو فوكو سنة 1833: "لا أظنني بحاجة إلى القول بأن المغرب لا يتوفّر على طرق معبّدة، فليس فيه إلا عدد كبير من طرق السير على الأرجل المتداخلة فيما بينها والمُكوّنة متاهات يضلّ المرء عبرها غايته بسرعة، اللهم إلا إذا كانت له معرفة جيدة بالبلد. هذه الطرق ممّرات سهلة الممارسة في مناطق السهول. لكنها صعبة جدًا وكثيرًا ما تكون خطيرة في مناطق الجبال". شارل دو فوكو، **التعرف على المغرب 1883-1884**، ترجمة المختار بلعربي (الدار البيضاء: دار الثقافة، 1999)، ص 13.

3 ينظر على سبيل المثال الدراسة التي أنجزها القنصل الفرنسي في مدينة الصويرة أوجست بومبي بعنوان: Auguste Beaumier, *Itinéraire de Mogador à Maroc et de Maroc à Saffy* (Paris: Imprimerie de E. Martinet, 1868).

4 ينظر كذلك كتاب ألبير كوسان ودانييل سورين: (1905) *Le Maroc* (Paris: Hachette)، حيث أوردوا وصفًا تفصيليًا لشبكة الطرق في المغرب في فترة القرن التاسع عشر، وخير مثال على هذه الأحكام نسوقه من رحلة غابرييل شارم، فهذه الطرق كانت تبدو له رديئة والناس غير متحضّرين ومفتقرين إلى النظام وبخاصة إلى اللباقة: 31 p. Gabriel Charmes, *Une ambassade au Maroc* (Paris: C. Levy, 1887).

5 ينقل محمد داود ما قاله صحافي أميركي زار المغرب سنة 1891 عن حالة الطرق: "وإذا أردت أن تبحث عن حمار في هذه البلاد، فلا تنظر إلى جمال شكله، بل ابحث عن كبر قدميه، لأن الطرق منعرجة وضيقّة وغير معبّدة في طول البلاد وعرضها"؛ وفي الأخير يعلّق محمد داود بقوله: "وهذا الوصف منه للطرق المغربية في ذلك العهد هو عين الحقيقة". محمد داود، **تاريخ تطوان**، مج 1 (الرباط: دار أبي رقراق، 2013)، ص 46. نذكر كذلك شهادة أخرى للفقير أحمد الرهوني يصف فيها كيف قطع نهر سبو أثناء رحلته إلى فاس سنة 1891 في يوم كثرت فيه الأمطار: "ثم نهضنا يوم الإثنين، وبتنا على وادي سبو في الموضع المسمّى بالمقرن، وهو موضع يجتمع فيه سبو وورغة. وفي يوم الثلاثاء قطعناه في قوارب مملوءة بالمياه. وما زلنا بين خوف ورجاء، حتّى نجانا الله من الغرق بفضل وكرمه". ينظر: أحمد بن محمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، ج 8 (تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمير، 2003)، ص 156.

6 توضّح ذلك الرسالة الموجهة إلى القائد ابن المودن والتي جاء فيها: "فنامرك [كذا] أن تقوم مع الخديم الصنهاجي بإصلاح الطريق التي يمر بها ركابنا السعيد من آن أبيض إلى قنطرة وادي العبيد، وتجعلوا للقنطرة حيطين من الطيبة [الطين المضغوط] في كل جانب، وتصلحوا شعبة أفرقخش وشعبة تبغار بعد خروج الجبل إصلاحًا متقنًا وتعجّلوا بذلك. وقد وجّهنا حملته قائد الماية والمهندس والطبيعية للوقوف على ذلك ومعانيته حتّى يتم على وفق المراد والسلام". ينظر الرسالة في: علّال الخديمي، "النزائل والمواصلات والتدخل الأجنبي في المغرب خلال القرن التاسع عشر"، **هسبريس تمولدا**، العدد 31 (1993).

أما عن اعتناء السلاطين ببناء القناطر، فقد ورد عند المشرفي ما يلي: "ومن مآثره الدالة على ضخامة ملكه [السلطان المولى الرشيد] واعتنائه بأمور المسلمين، قنطرة وادي سبو العجيبة البناء، وكان الشروع في بنائها يوم السبت رابع عشر ذي القعدة سنة تسع وسبعين وألف [15 أبريل سنة 1669م] من مال كان أقرضه للتجار من فاس وغيرها للتجارة [...] وفي سؤال من هذه السنة أيضًا جددت قنطرة الرصيف"⁽⁷⁾.

ثم تكلم ابن مرزوق التلمساني واصفًا الإجراءات التي اتخذها السلطان أبو الحسن المريني (1331-1348م) في هذا الجانب بقوله: "وأما القناطر فلا يخفى ما فيها، فقد عمل فيها الأعمال العجيبة، فقنطرة وادي رداد وقنطرة بني بسيل وقنطرة الوادي بداخل فاس وقنطرة الرصيف وقنطرة وادي سطفسيف بتلمسان وقنطرة باب الجياد وسد سيرات وقنطرة ميناء، هذه كلها من إنشائه وفي حسناته، ولا يحيط الوصف بها ولا يقدر قدر ما أنفق من الأموال الطائلة فيها"⁽⁸⁾.

ويمكن التمييز خلال هذه الفترة التاريخية في المغرب نوعين من الطرق التي شكّلت المسالك الأساسية للمسافرين، سواء البعثات الرسمية أو الرحالة والمستكشفين الأوروبيين، انطلاقًا من بداية القرن التاسع عشر وإلى حدود سنة 1912⁽⁹⁾. يتمثل الصنف الأول في طريق البعثات السفارية الذي ينطلق من مدينة طنجة "العاصمة الدبلوماسية" نحو إحدى عواصم المغرب فاس - مكناس - مراكش. ولهذه الرحلة، كما يذكر عبد الأحد السبتي، "إيقاعها وترتيباتها وطقوسها. وهي في الغالب رحلة نمطية، من حيث مسالكها ومحيطها البشري"⁽¹⁰⁾.

وبتمثل الصنف الثاني في الطريق الذي يسلكه الرحالة والمستكشفون الأجانب⁽¹¹⁾. ويمتد الطريق الرئيس الأول من طنجة إلى فاس⁽¹²⁾. كان المسافرون يقطعونه في هذه الفترة في غضون ستة أيام، عبر مراحل ومحطات تنطلق من طنجة إلى العرائش⁽¹³⁾، ومن العرائش إلى القصر الكبير. وهذه المرحلة هي الأكثر صعوبة؛ نظرًا إلى كثرة البحيرات والممرات المائية الموجودة في هذا الطريق. ثم يستأنف المسافر رحلته مرورًا بدوار الشماعلة ونزالة بني عمار ووادي سبو إلى أن يصل إلى مدينة فاس.

ومن الطرق الرئيسية في مغرب ما قبل الاستعمار، نذكر طريق فاس وجدة الذي كانت تجتازه، في أغلب الأوقات، القوافل التجارية القاصدة مدينة تلمسان، وكان لا بدّ من اجتياز المرحلة الأولى والأساسية في هذا الطريق وهي فاس تازة التي تتحكّم في المضيق

7 محمد بن مصطفى المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية**، تحقيق إدريس بوهليلة، ج 1 (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف، 2005)، ص 276.

8 محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تحقيق د. ماريّا خيسوس بيغيرا (الجزائر: المكتبة الوطنية الجزائرية، 1981)، ص 418.

9 تجدر الإشارة هنا إلى أن المغرب كان يعرف خلال العصر الوسيط خمسة محاور طرقية أطلقت عليها تسمية معبرة، وبحلول القرن التاسع عشر حصلت تغييرات واضحة في تفاصيل الشبكة الطرقية، وهي:

- "طريق التمر" وتربط بين فاس وسجلماسة.
- "طريق النحاس" وتربط بين فاس ومراكش عبر تادلا.
- "طريق الجهاد" وتربط بين مراكش ورباط الفتح.
- "طريق الحجاج" وتربط بين فاس وتلمسان.
- "طريق القيلة" وتربط بين مراكش وسجلماسة.

ينظر: السبتي، ص 240-241.

10 المرجع نفسه، ص 35.

11 المرجع نفسه.

12 حول هذا الطريق وغيره، ينظر: Cousin & Saurin, p. 320.

13 هذا الطريق البري من طنجة إلى العرائش لم يعد مستعملًا بكثرة في بداية القرن العشرين، وبدأ المسافرون، وأغلبهم أوروبيون، يفضلون اجتيازها بالسفن البخارية في بداية القرن العشرين. Ibid., p. 327.

بين الأطلس المتوسط وجبال الريف⁽¹⁴⁾، إضافة إلى الطريق الممتد في الجنوب المغربي من مراكش إلى الصويرة ثم منطقة سوس عبر جبال الأطلس.

أما في شمال المغرب، فالطريق الرئيس الآخر في هذه المنطقة هو الذي يربط طنجة بتطوان في مسافة يقطعها المسافر من دون توقف في يوم واحد. غير أن أغلب المسافرين كانوا يفضلون الاستراحة والمبيت في فندق عين الجديدة، على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من تطوان⁽¹⁵⁾. ونخص بالذكر أيضاً، في هذه الشبكة الطرقية في شمال المغرب، طريق تطوان فاس الذي يتفرع من طريق طنجة تطوان عند فندق عين الجديدة⁽¹⁶⁾. وكانت البغال والحمير والجمال هي وسائل النقل والسفر التي يعتمد عليها المسافرون لاجتياز هذه الطرق، وبالأخص في فصل الربيع، حيث تتوافر المياه العذبة والعلف للدواب. وتشير بعض المصادر الأوروبية إلى السعر الذي كان مخصصاً لكراء دواب السفر، وكذلك إلى أنواع المؤونة التي كان يتزود بها المسافر⁽¹⁷⁾.

أولاً: طريق طنجة تطوان خلال القرن التاسع عشر

يعتبر طريق طنجة تطوان من بين الطرق الرئيسة في مغرب القرن التاسع عشر، وضمن المحاور التي كان السلطان يشرف على تنظيم حراستها، ويدعى "طريق المخزن"⁽¹⁸⁾؛ وقد كلف قبائل بني يدر وودراس وأنجرة على حماية الطريق وتأمينه، وأشرف على بناء فندق عين الجديدة لاستراحة المسافرين والقوافل وتموينهم.

وتكمن أهمية هذا الطريق في أنه يربط بين مجموعة من القبائل، ويربط بين المدينتين المهمتين في شمال المغرب: طنجة وتطوان؛ فالأولى كانت تعدّ العاصمة الدبلوماسية للمغرب ومقر الهيئة الدبلوماسية الأجنبية، وتوجد فيها أكبر نسبة من الجالية الأوروبية. والمدينة

14 عن طريق فاس تازة، ينظر: الدراسة التي أنجزها عبد الرحمان المودن بالفرنسية:

Abderrahman El Moudden, "Exploration et pénétration: Un Siècle d'itinéraires dans le couloir de Fès - Taza (1805-1911)," *Hespéris-Tamuda*, 1984, vol. XXII, Fascicule Unique, pp. 103-118.

15 ستتطرق إلى الحديث بكل تفصيل عن هذا الطريق الذي يشكل المحور الأساس لهذه الدراسة.

16 تحدّث عنها ألكسندر جولي في دراسته المونوغرافية عن مدينة تطوان المنشورة في حلقات في مجلة **أرشيفات المغرب**:

Joly, Alexandre, "Tétouan," *Archives Marocaines*, vol. 4 (1905), p. 229.

وقد تكلم عنها بعض المراجع الأوروبية ونخص بالذكر:

John Braithwaite, *Histoire des révolutions de l'empire de Maroc* (Amsterdam: Chez Pierre Mortier, 1731), p. 159; Emilién Renou, *Description géographique de l'empire du Maroc pendant les années (1840-41-42)* (Paris: Imprimerie Royale, 1846), pp. 20, 308.

وذكرها دو فوكو في رحلته بقوله: "ليس هناك ما يقلق البال خلال الطريق الذي نسلك من هنا (تطوان) إلى فاس. ستكون دائماً في بلاد المخزن وفي أرض مأهولة فلا داعي إلى خفر". دو فوكو، ص 23. ثم تحدّث عن هذا الطريق في القرن العشرين المصدر المغربي الوحيد: أحمد الرهوني، في كتابه **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، أثناء رحلته إلى فاس لاستكمال دراسته، فتكلم بكل تفصيل عن الطريق والمراحل التي قطعها والصعوبات التي تعرّض لها. الرهوني، ج 8، ص 149.

17 على سبيل المثال، يشير ألبير كوسان إلى أنّ سعر البغال هو ثلاث (بسيطات) لليوم الواحد [البسيطة Peseta جمعها "بساسيط" هي عملة إسبانية، وكانت هذه العملة تروج بالمغرب قبل القرن التاسع عشر، حيث وقع القبول الرسمي لهذه العملة في المعاهدة التي عقدها السلطان سليمان مع إسبانيا سنة 1799، واستمرت متداولة بالمغرب إلى سنة 1845، عندما قبلت رسمياً العملة الفرنسية، وحلت محلها من حيث قوة الرواج حتى سنة 1881، عندما قام الحسن الأول بالإصلاح النقدي. فاستعادت العملة الإنسانية قوة رواجها، بعد أن تم على أساسها ضرب السكة الحسنية؛ ذلك أن السلطان مولاي الحسن أخذ في الحسبان عملة "البسيطة"، ومن هنا جاء اسم العملة الجديدة، حيث أطلق عليها اسم "الريال الحسني" أو "البسيطة الحسنية" نسبة إلى السلطان الحسن الأول. والريال الحسني يتكون من 5 بساسيط، غير أن البسيطة الحسنية لم تكن موجودة، فقد كانت عملة حسابية فقط. في هذا الصدد ينظر: عمر آفا، **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر: سوس (1822-1906)** (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1988). ثم إن المسافر كان يتزود بخبز الشعير والدجاج والبيض. Cousin & Saurin, p. 319.

أما بالنسبة إلى البعثات الرسمية، فكان المخزن يكلف شيخ كل قبيلة سيمر منها الوفد بتقديم "المونة" إلى المسافرين وتشمل المواد الغذائية من دقيق وشعير وأغنام ودجاج وغير ذلك. حول "المونة" ينظر تعريفها في: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، **معلمة المغرب**، ج 21 (سلا: مطابع سلا، 1992)، ص 7330.

18 نذكر في هذا المجال طرق: فاس الرباط، مراكش الصويرة، مراكش تارودانت؛ ويشير عبد الأحد السبتي إلى أن بعض المحاور كانت تطلق عليها في آن واحد تسمية "طريق السلطان"، وهي حالة محور فاس تافيلالت. السبتي، ص 40.

الثانية كانت تمثل دور وسيط تجاري بين المغرب وأوروبا وكذلك بين المغرب والشرق الأدنى، إضافة إلى أنها اعتبرت المرسى الأساس بالنسبة إلى كل من مدينتي فاس ومكناس⁽¹⁹⁾.

اهتم الرحالة والمسافرون والبعثات الأوروبية بالمسالك سواء من طنجة إلى تطوان أو من هذه الأخيرة إلى طنجة. لذا نجد وصفاً مفصلاً حول المسافات والأشكال والتحديات الجغرافية لهذه الطرق والطبيعة المحيطة بها وما هنالك من غابات ونوعية الأشجار والنباتات فيها، وعدد الأودية وأهميتها، إضافة إلى القبائل الموجودة على طولها، والمحطات الأساسية التي يتنقل بينها المسافر. وقد اهتمت هذه الكتابات الأوروبية بذكر وسائل النقل التي يعتمد عليها المسافر، والوضعية الأمنية للطريق، والأحداث التي شهدتها وأثرت في الأوضاع الأمنية والاقتصادية في مجالات اختراقها.

1. وصف الطريق

انطلاقاً من طنجة، كان المسافرون من قوافل تجارية ورحالة وغيرهم يعبرون الطريق المؤدي إلى تطوان في مدة لا تتجاوز اثنتي عشرة ساعة متواصلة⁽²⁰⁾. تبدأ الرحلة من شرق طنجة مروراً بوادي مغوغة وتقطع مرتفع الزينات وصولاً إلى فندق عين الجديدة⁽²¹⁾. من هذا الفندق يمرّ المسافر عبر الواد الكبير⁽²²⁾، ليصل إلى واد الخروب⁽²³⁾، ومنه يستمرّ في قطع تضاريس المنطقة من جبال ومنحدرات، "فتتفرج الشعب شيئاً فشيئاً وتبسط جوانب المنحدرات، وأخيراً ها نحن في السهل. وقبل الوصول إلى مدينة تطوان نلج منطقة بها أودية متسعة تغطيها كلياً حقول القمح على مدّ البصر تتدفّق بها مياه عذبة"⁽²⁴⁾. وقبل أن يدخل المسافر مدينة تطوان يقطع نهراً هو واد بوصفيحة، يصفه دوفوكو بقوله: "ضفاف هذا الواد وعرة يتراوح علوّها ما بين خمسة إلى ستة أمتار. ماء الواد صافٍ وجارٍ يصل عرض المكان حيث يجري الماء ما بين ستة إلى ثمانية أمتار، يُخترق هذا النهر بواسطة قنطرة ذات عقّدين في حالة لا بأس بها"⁽²⁵⁾.

اهتمّت بعض الرحلات الاستكشافية الأوروبية بتفاصيل تذكرها حول الطبيعة الجغرافية للطريق والمواقع التي تمرّ بها من منحدرات وتلال وجبال، إضافة إلى الأودية وأنواع النباتات والأشجار التي تغطي جوانب الطريق، فعلى سبيل المثال لا الحصر، يصف العالم الجيولوجي الألماني أوسكار لينز (1848-1925) الطريق من طنجة إلى تطوان قائلاً: "انطلقنا من طنجة حوالي الساعة العاشرة

19 عبد العزيز السعود، **تطوان في القرن الثامن عشر** (تطوان: منشورات جمعية أسير، 2007)، ص 194.

20 تجمع أغلب الكتابات الأوروبية التي وصفت الطريق على هذه المدة التي يستغرقها السفر المتواصل بين طنجة وتطوان من دون توقّف ومبيت في فندق عين الجديدة: "انطلقنا من مدينة طنجة في الساعة السادسة صباحاً ووصلنا إلى مدينة تطوان في الساعة السادسة مساءً". ينظر: Charles Didier, "Le Maroc: Tétouan," *Revue des Deux Mondes*, vol. 8 (1 novembre 1836), pp. 241-269.

أما مسافة الطريق، فقد تمّ تحديدها غالباً في ستين كيلومتراً. ينظر مثلاً:

Léon Godard, *Description et Histoire du Maroc* (Paris: C. Tanera, 1860), p. 58; Joly, p. 228.

21 Résidence générale de la République française, *Tanger et sa zone*, Series villes et tribus du Maroc (Paris: Editions Ernest Leroux, 1921), p. 371.

22 وادي المهرهر بحسب ميشو بيلير.

23 يسمى عند العامة مشرع الحاشف بحسب ميشو بيلير.

24 دوفوكو، ص 12.

25 المرجع نفسه، ص 13. وضع له محمد بن عزّوز حكيم تعريفاً في **معلمة المغرب**، كالآتي: "بوصفيحة أحد روافد نهر مرتين، بنى فوقه باشا تطوان أحمد الحداد سنة 1270 / 1853 قنطرة لم يكن لها مثيل في شمال المغرب، وقد دخلت هذه التاريخ عندما أبرمت الهدنة بين المغرب وإسبانيا على إثر حرب تطوان يوم فاتح رمضان 1276 / 1860 مارس ووقع الاتفاق على أن تكون القنطرة المذكورة هي الحدّ الفاصل بين الجيشين المغربي والإسباني إلى أن يتم التوقيع على معاهدة الصلح النهائية". الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ج 5، ص 1735. ويشير محمد داود إلى أن السلطان الحسن الأول عند زيارته لتطوان سنة 1889 ومغادرتها إلى طنجة قضى يومه وليلته بوادي بوصفيحة: "في الساعة الثامنة من صباح يوم الخميس 23 محرم 1307 غادر السلطان ودائرته مدينة تطوان، ونزل بوادي بوصفيحة على بعد نحو عشر كيلومترات من تطوان، وهناك قضى يومه وليلته". داود، ص 26.

18 [تشرين الثاني]/ نوفمبر 1879) وكانت غايتنا هي الوصول إلى فندق يقع في منتصف الطريق بين طنجة وتطوان يفصل كثير من المسافرين المبيت فيه عوض قطع الطريق بصفة متواصلة ومرهقة. اتّجهنا نحو الجنوب الغربي حيث الطريق منعرجات تتخللها كثبان رملية وأراضٍ من الطين والصخور الكلسية تكون تلالاً ذات منحدرات خفيفة النزول⁽²⁶⁾.

ومن جانبه وصف شارل ديديي (1805-1864) الطريق بقوله: "بعد مغادرتنا طنجة نزلنا نحو الشاطئ الرملي باتجاه طنجة البالية حتى وصلنا إلى مرج مكسو بأزهار برّية يوجد في نهايته مجرى مائيّ تكثر حوله أشجار الصنوبر ونبات الدفلى"⁽²⁷⁾. ويستمر في هذا الوصف المفصل والجغرافي للطريق إلى قوله: "في منتصف النهار وصلنا إلى عين مائية تسمى عين الجديدة"⁽²⁸⁾.

أما انطلاقاً من تطوان، فكان المسافرون والقوافل التجارية يتّبعون وادي مارتيل ليصلوا إلى وادي الخميس عبر قنطرة وادي بوصفيحة. وبعد اجتيازه يتّبعون مجرى وادي أكراس (أجراس) الذي يعدّ نهاية الأراضي المنبسطة لتصبح الطريق بعده مسلكاً جبلياً غائباً يصعب اختراقه وبالأخصّ عند الممرّ الضيق لفندق عين الجديدة الذي ينفذون منه نحو الواجهة الأطلسية⁽²⁹⁾، ثمّ يمرون بمحاذاة مجرى وادي الثلاثاء نحو جبل الزينات ففحص طنجة، ويصلون في الأخير إلى المدينة.

وتجمع غالبية الكتابات الأجنبية على كثرة المياه العذبة وغزارتها متدفقةً من ينابيع في المرتفعات والبحيرات لتشكل جداول وفيرة على طول الطريق⁽³⁰⁾.

2. فندق "عين الجديدة"

حرص المخزن على إقامة شبكة من الخانات أو الفنادق على طول الطرق التي يمرّ بها المسافرون وتجتازها القوافل المحمّلة بالسلع من مدينة إلى أخرى. وتوفّر هذه الفنادق ملاجئ آمنّة للمسافرين بأمّعتهم ودوابهم عندما يحسّون بالتعب أو الخطر، فيتّخذونها في الليل مقرّات للمبيت توقّر لهم الماء والغذاء والأمن، وذلك لقاء أجر معلوم يؤدّي للمسؤولين والقائمين عليها. من أجل ذلك حرص السلاطين المغاربة على العناية بها والحثّ على تأمين أنفس المسافرين المارّين بها وأموالهم.

في منتصف طريق طنجة تطوان⁽³¹⁾، وفي وسط الجزء الجبلي للطريق، بنى السلطان عبد الرحمن بن هشام فندق "عين الجديدة" بتاريخ 23 جمادى الأخيرة 1255هـ/ 3 أيلول/ سبتمبر 1839م نسبة إلى عين المياه المجاورة له. وبعث برسالة إلى عامله في مدينة تطوان القائد أشعاش هذا نصّها⁽³²⁾:

26 Oscar Lenz, *Tombouctou: Voyage au Maroc, au Sahara et au Soudan*, traduit de l'Allemand par Pierre Lehautcourt (Paris: Hachette, 1886), p. 65.

27 Didier, pp. 242, 243.

28 Ibid., p. 243.

29 "تتغير طبيعة الطريق وجغرافيتها ابتداء من الفندق"، أكد ذلك ألكسندر جولي: Joly, vol. 4, p. 230.

30 على سبيل المثال، ينظر: 1, p. 1055 (27/5/1894), *Le progrès de Bel Abbès*, "Voyages et aventures sur la côte orientale du Maroc".

31 أغلب الكتابات الأوروبية التي وصفت الطريق بين طنجة وتطوان تحدّد المسافة بين الفندق ومدينة طنجة بـ 35 كلم، وبين الفندق ومدينة تطوان بـ 25 كلم.

32 داود، مج 8، ص 285؛ هناك كذلك إشارة إلى أن من بناه هو السلطان عبد الرحمن بن هشام، في:

Estado Mayor Central del Ejército, Servicio Historico Militar, *Historia de las campañas de Marruecos* (Madrid: Servicio Histórico Militar, 1947), vol. 3, p. 309;

بقوله: "أسس السلطان عبد الرحمن فندق عين الجديدة سنة 6521هـ/ 1838م-1839م، بحسب الكتابة المنقوشة على الحجر فوق بابه".

Ricardo Riuz, "La Kabila de Uadras," *Boletín oficial de la zona de influencia española en Marruecos*, no. 3 (10-25/5/1913), p. 212.

"الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلّم

عبد الرحمان بن هشام، الله وليّه

خديمنا الأرمى القائد مَحْمَد بن عبد الرحمن أشعاش، وفَقَّك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فالنزالة التي كان وقَّف على بنائها خديمنا المزوحي بالعين الجديدة التي بين طنجة وتطوان، وسقطت لعدم معرفته بتراب البلد، بوصول كتابنا هذا إليك اشرع في تجديد بنائها بالجبر بناء متقناً، فإن فيها مصلحة عامة والسلام، في 23 جمادى الأخيرة عام 1255".

وهذا الفندق كان بناية مكعبة الشكل، مكوّنة من محالّات وبيوتات يتوسّطها فناء كبير. ويؤكّد مؤرخ تطوان محمد داود ذلك بقوله: "وفعلاً قام القائد أشعاش⁽³³⁾ ببناء الفندق المذكور متقناً فكان هو المكان الذي يستريح فيه المسافرون بين طنجة وتطوان، وكانت فيه بيوت ينام فيها المسافرون ويحفظون أمتعتهم وبضائعهم، كما كان فيه مراح لمبيت الدواب وغيرها من الحيوانات؛ وقد بقي على هذه الحالة ما يزيد على مائة عام"⁽³⁴⁾.

انفردت الكتابات الأجنبية بالحديث عن فندق عين الجديدة بقدر من التفصيل والتدقيق، ففي سنة 1884 وفي الرحلة التي قام بها الضابط العسكري الإسباني خوليو سيرفيرا باقييرا J. Cervera Baviera إلى السواحل الشمالية للمغرب منحنا وصفاً مفصلاً لموقع الفندق، "يرتفع بناؤه على منبسط واسع في قدم الجبل". وأما شكل الفندق فهو "مكعب طول أضلاعه ثلاثون متراً، وطول جداره أربعة أمتار، ويوجد في وسطه باب في اتجاه الشمال". أما غرفه وأجنحته فنجد منها "الخاصة بالمسافرين، وغرفة نوم للمسؤول عن الفندق، وأخرى تقدّم فيها خدمات الشاي والقهوة وأنواع الأطعمة. ثم توجد أجنحة خاصّة بتخزين الشعير والقش وعلف الدواب". ويوجد في الفندق "فناء كبير تستريح وتنام فيه دواب المسافرين"⁽³⁵⁾.

نجد الوصف نفسه في رحلة أخرى قام بها الفرنسي دراى (1857-1925) Dry في أواخر القرن التاسع عشر إلى شمال المغرب سواء فيما يتعلّق بالموقع أو بالشكل الهندسي للفندق وغرفه وأجنحته. وقد أضاف في آخر الفقرة قوله: "عندما استرحنا قمت بجولة حيث تكثر الحيوية حول الفندق؛ وجدت عدداً من التجار العرب يستريحون مع دوابهم. وما لبثت أن نزلت أفواج من النساء القرويات يعرضن منتجاتهن من شعير وبيض فيساومهنّ التجار على الأثمان، ويظلّ هذا النشاط التجاري حتّى يحلّ الليل ويعمّ الظلام"⁽³⁶⁾.

يوقّر فندق عين الجديدة ملجأً آمناً للمسافرين بأمتعتهم ودوابهم عندما يحسّون بالتعب أو الخطر، ويتّخذونه في الليل مقراً للمبيت⁽³⁷⁾؛ وقد كان من بين المراكز المهمّة في منطقة الشمال المغربي التي يقصدها التجار والمسافرون، وكان يتوقّر على ما يحتاجون إليه

33 هو محمد بن الحاج عبد الرحمان أشعاش، أسندت إليه باشوية تطوان عند عزل العربي بن يوسف المسلماني عنها سنة 1241هـ/1825م، وظلّ والياً حتّى توفي سنة 1261هـ/1845م. ينظر: مصطفى بوشعراء: **الاستيطان والحماية بالمغرب**، ج 2 (الرباط: المطبعة الملكية، 1987)، ص 651.

34 داود، مج 8، ص 285.

35 *Expedición geografica – militar al interior y costas de Marruecos: sept., oct., nov., y diciembre de 1844.* (Barcelona 1885), pp. 49, 50.

36 "Vers l'occident: Gibraltar et le nord du Maroc," *La Revue Hebdomadaire*, 3^{ème} année, tome XI (Octobre 1899), p. 56.

37 يؤكّد ذلك أوسكار لينز في رحلته إلى المغرب بقوله: "غادرنا مدينة طنجة على الساعة العاشرة صباحاً (يوم 18 تشرين الثاني / نوفمبر 1879)، وغرضنا الأساس هو الوصول إلى فندق (عين الجديدة) الذي بنته الدولة المغربية لحماية القوافل، في منتصف الطريق بين طنجة وتطوان. وهو مكان لاستراحة المسافرين الذين يفضلون عدم مواصلة السير في طريق طنجة تطوان خلال يوم واحد". Lenz, p. 65.

من ماء وغذاء وعلف للماشية وزاد وأمن واستقرار، زيادة على الحراسة المشددة والمداومة المستمرة⁽³⁸⁾. وتجدر الإشارة إلى أنه إضافة إلى فندق عين الجديدة، كان بعض المسافرين يقضون الليل أحياناً في أماكن أخرى آمنة وفي ضيافة بعض القرى⁽³⁹⁾.

ظل فندق عين الجديدة مكاناً لاستراحة المسافرين والقوافل التجارية إلى عهد الاستعمار الإسباني لمنطقة الشمال المغربي، وفي هذه الفترة، كما يقول محمد داود، "اتخذته الإسبان مركزاً لجيوشهم، وعندما انتهى عهد الحماية وتوحد المغرب، هدم ذلك الفندق تهدئاً - وهو الآن أكوام من تراب - أي عام 1398هـ / 1978م"⁽⁴⁰⁾.

3. أمن الطريق

نُظمت الحماية والأمن في المحور الطرقي بين طنجة وتطوان على المستوى القبلي، فكان المسافرون والقوافل التجارية يتنقلون تحت حماية القبائل التي كانت كل واحدة منها تتكفل بهم إلى أن يغادروا حدودها. لقد كانت الحماية والأمن مسؤولية ملقاة على عاتق شيوخ القبائل؛ ومثالاً بمقتضى الميثاق، الذي فرضه وجهاء قبيلة وادراس سنة 1864 على شيخ قبيلتهم، أصبح هذا مطالباً بتوفير الأمن بمسلك المخزن الممتد من "عزيب الطايفي" إلى "قنطرة بوصفيحة"، أي على طول ثلاثين كيلومتراً تقريباً⁽⁴¹⁾.

يتبين أن القبائل الشمالية شكلت الركيزة الأساس في حفظ الأمن الطرقي، وشجعها المخزن على القيام بهذا الدور الرئيس⁽⁴²⁾. ثم حظي شيخ القبيلة بنفوذ كبير في هذه المناطق. هذا ما يؤكده الجيولوجي الفرنسي لويس جانتيل Louis Gentil في رحلته في المغرب الشمالي سنة 1905، حيث عرفت المنطقة اضطرابات كثيرة تجلت في انعدام الأمن نتيجة الاختطافات التي قام بها الريسوني (والتر هاريس W. Harris، والضابط ماكلين Mclean، والثري الأميركي بيرديكاريس Perdicares)، والاختيالات التي ارتكبتها السكان المحليون في صفوف الأجانب. كل هذا كان له أثر في زعزعة الأمن في المنطقة الشمالية، وصعب على الرحالة والمستكشفين الأوروبيين القيام بالسفر في هذه المناطق من دون حماية شيخ أو قائد قبيلة. يخبرنا لويس جانتيل أن صديقه الفرنسي غاستون بوشي Gaston Buchet كتب رسالة إلى قائد قبيلة أنجرة الدواس، الذي سرعان ما ردّ الجواب، يعبر فيه عن سعادته، وأنه سيوفر الحماية المطلقة للصديق بوشي⁽⁴³⁾.

38 يذكر المريني العياشي أن من جملة المراكز المهمة كذلك في منطقة الشمال التي كان يقصدها التجار للراحة والمبيت ضريح سيدي أحمد المصباحي بالرهونة، وزاوية مولاي عبد الله الغزواني ببني زكار، وزاوية سيدي محمد بن علي الريسوني بتازروت، وسيدي هدي بني عروس، وسيدي يوسف التليدي بالأخماس السفلى، والمنزلة بجبل الحبيب، والنزلة بدار الشاوي ببني أمصوار، "ولعل القصد من اللجوء إلى هاته [كذا] الزوايا والأضرحة هو الاحتماء بصاحبها لأن المحتمي بها لا يجسر أحد على إذابته ولا التعرض لبضاعته". المريني العياشي، **النضال الجبلي**، ج 3 (د. م. [د. ن. [د. ت. [، ص 108.

39 في هذا الصدد يقول دو فوكو في طريقه من طنجة إلى تطوان: "توقفنا في الساعة 9 و15 دقيقة قرب بعض الأكواخ، وقضينا الليل في هذا المكان [...] في الساعة الرابعة صباحاً استأنفنا السير وسرعان ما دخلنا منطقة الجبال [...] وهنا يتغير المشهد انطلاقاً من فندق مرنا أمامه". وهنا نفهم أن شارل دو فوكو، مع من كان يرافقه في رحلته، فضلوا المبيت عندما أدركهم الليل في أحد الأمكنة ولم يبيتوا في فندق عين الجديدة الذي مرّوا أمامه كما يشير إلى ذلك. دو فوكو، ص 12.

40 المرجع نفسه، ص 285.

41 هذا الميثاق موجود في دورية "الأرشيف البربري" ضمن الدراسة التي أنجزها:

Biarnay Samuel, "Un cas de régression vers la coutume berbère chez une tribu arabisée," *Archives Berbères*, 1.2-4 (1915-1916), pp. 219-229.

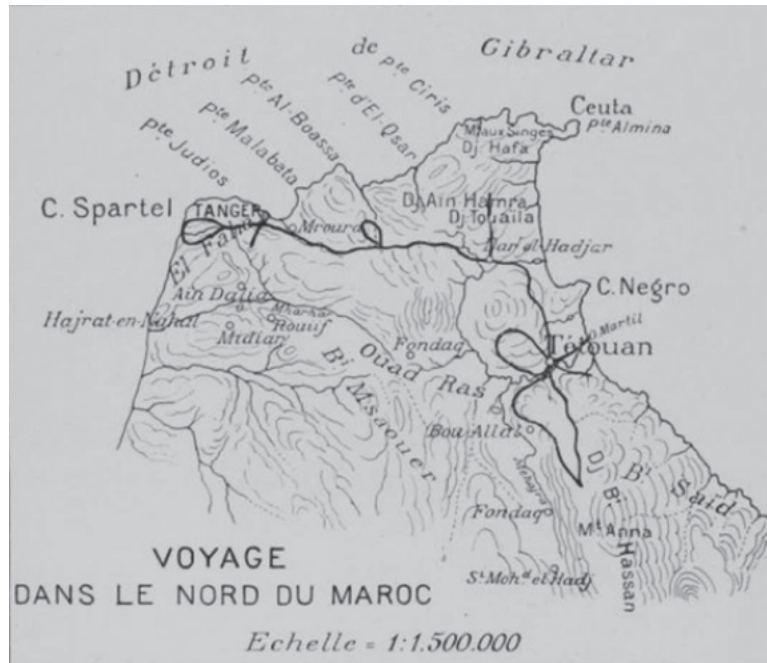
وأدرجه كذلك عبد العزيز بوليفة في مقاله: "وضعية طريق 'طنجة تطوان' في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20"، ضمن أعمال ندوة: تطوان قبل الحماية (1860-1912)، 12-14/11/1992، ص 52. وتجدر الإشارة إلى أنه كان يوجد بالتناوب عند قبائل وادراس وأنجرة وبني يدر نظام لمراقبة طريق المخزن بين تطوان وطنجة حتى العرائش وحمايتها بواسطة مراكز للحراسة.

42 في هذا الصدد بعث النائب السلطاني محمد الطريس رسالة إلى قبائل الفحص جاء فيها: "فالواجب هو حياة بلادكم والدفاع عنها وحفظ الطرقات وحراستها حتى لا يمد أحد اليد في المازين، ومن نزل إليها بقصد النهب والتعرض يقابل بما يوجب طرده لتبقى مأمونة محفوظة". جمال الدين العمراني أشطبار، "طنجة بين سنتي 1900-1912"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1996، ص 145.

43 يعطي لويس جانتيل في كتابه تعريفاً عن الفرنسي غاستون بوشي أنه أحد العلماء الذين كانوا مكلفين، منذ سنوات من وزارة التعليم العام الفرنسية وكذلك فيما بعد من "لجنة المغرب"، بالبحث الطبوغرافي والجيولوجي والأركيولوجي في المغرب، وربط علاقات مع الأهالي والمسؤولين المغاربة وخاصة من قبيلة أنجرة.

Louis Gentil, *Dans le Bled es Siba: Explorations au Maroc* (Paris: Masson et Co. Éditeurs, 1906), p. 6.

خريطة تبين طريقاً آخر سلكه لويس جانتيل من طنجة إلى تطوان



المصدر:

Louis Gentil, *Dans le Bled es Siba: Explorations au Maroc* (Paris: Masson et Co. Éditeurs, 1906), p. 6.

تعاملت الكتابات الأوروبية مع موضوع الأمن في طريق طنجة تطوان بحسب الفترات الزمنية التي جرت فيها الرحلة والسفر أو استكشاف المنطقة، ففي الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لم يكن المسافر الأوروبي الذي يستعمل هذا المحور الطرقي في حاجة إلى حمل السلاح معه، بل كان يكفي بالحماية التي يوفرها له الحارس الذي كلفه شيخ القبيلة أو قائدها بمرافقته⁽⁴⁴⁾. وفي أواخر الخمسينيات أكدت كذلك رحلة أخرى أنه يتعين على المسافر من طنجة إلى تطوان وحتى العرائش أن يكون مصحوباً بحارس واحد يحميه طول الطريق⁽⁴⁵⁾.

تغيّرت الأوضاع في بداية القرن العشرين، نتيجة الأحداث والاضطرابات التي عرفها المغرب بصفة عامة والمنطقة الشمالية على وجه الخصوص، ففي سنة 1902 ونتيجة لرفض المخزن إطلاق سراح بعض أفراد القبائل، وقع هجوم على قوافل تجارية بين تطوان وطنجة أسفر عن مقتل بعض الرعايا الإنكليز، وعلى إثره أرسلت إنكلترا بارجة حربية إلى تطوان⁽⁴⁶⁾. ثمّ إنه في السنة التالية، على إثر الاضطراب الذي أحدثه بوحمارة في المنطقة الشمالية، تحدّث جريدة فرنسية عن تعرّض فرنسيين للسرقة والسلب في طريقهم من تطوان إلى طنجة⁽⁴⁷⁾.

44 Didier, p. 242.

45 Léon Godard, *Le Maroc, Notes d'un Voyageur 1858-1859* (Alger: Impr. A. Bourget, 1859), p. 4.

ويضيف أن المسافر من طنجة إلى فاس لا يكفي حارس واحد بل ينبغي أن يصاحبه أربعة حراس.

46 *Journal officiel de la Guyane Française*, année 89, no. 48 (29/11/1902), p. 622.

47 *La Justice*, 22/4/1903, p. 2.

ازداد الوضع تأزماً، حينما حاصرت قبيلة بني يدر مدينة تطوان في سنتي 1903 و1904، وانضمت إليها قبائل بني وادراس وبني حزم وبني مصور وقسم من أنجرة⁽⁴⁸⁾. وقامت باعتراض طريق المسافرين والقوافل التجارية واحتجاز بضائعهم ومن ثم توقفت المواصلات بين تطوان وطنجة⁽⁴⁹⁾.

ونتيجة لهذه الاضطرابات التي عرفها المغرب في بداية القرن العشرين، اختل التوازن في المنطقة الشمالية، الشيء الذي ترك تأثيره في وضعية الأمن في المحور الطرقي بين طنجة وتطوان وشهد فترة المدّ والجزر بحسب الفترات الزمنية. فحينما كانت السلطة المركزية متحكمة وتفرض سلطتها على جلّ مناطق البلاد ساد الأمن، بينما في فترات الاضطرابات والمشكلات السياسية عمّت الفوضى وعدم التدبير الأمني في الطريق بين طنجة وتطوان.

ثانياً: أهم الأحداث التي شهدتها طريق طنجة تطوان في منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

1. خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر

تتجلى أهم الأحداث التي شهدتها طريق طنجة تطوان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في وقائع حرب تطوان لسنة 1860/1859، فقد أورد المؤرخ الإسباني طوماس فيغيراس Thomas Figueras الحديث عن بعض المحطات في طريق طنجة تطوان التي كانت مسرحاً لوقائع الحرب: "كانت القوات المغربية تحت قيادة مولاي العباس أخي السلطان مولاي محمد، وقد بلغ عدد جيشه 15000 رجل، وخيّم جيش السلطان في عين الدالية ليسدّ من فندق عين الجديدة الطريق إلى طنجة في وجه الجيش الإسباني"⁽⁵⁰⁾. ثم أعطانا مصدر فرنسي الصورة نفسها: ففي منتصف الطريق وبالقرب من فندق عين الجديدة تمركز الجيش المغربي بقيادة مولاي العباس، الذي سيصطدم مع الجيش الإسباني في سهل وادراس⁽⁵¹⁾.

كانت هذه المعركة التي وقعت في طريق تطوان طنجة يوم 23 آذار/ مارس 1860 حاسمة في حرب تطوان، انهزم فيها الجيش المغربي وأصبح مجبراً على توقيع الهدنة مع الإسبان الذين كانوا يطمعون في احتلال فندق عين الجديدة نظراً إلى موقعه الاستراتيجي. ويبيّن لنا طوماس فيغيراس هذا المشهد بقوله: "هي أعظم معركة قامت بها جيوشنا، وقد وقعت في اليوم 23 مارس 1860، ثم لم يبق أمام جيشنا إلا أن يسير إلى فندق عين الجديدة لا يعترض طريقه أحد، لأنّ هذه المعركة حطمت مقاومة العدو، وضمنت احتلال فندق عين

48 عن هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى: داود، ص 110-157؛ وكذلك الدراسة المونوغرافية:

Alexandre Joly, "Le siège de Tétouan par les tribus des Djebala 1903-1904," *Archives marocaines*, vol. 3 (1905), p. 266.

49 عن هذه الأحداث ورد عند جولي ما يلي: "وقد اعتبر اليديريون جواب القائد للحرب، فسطوا على قافلة تجارية يهودية كانت قادمة من طنجة إلى تطوان، وأخذوا رجالها رهائن إلى أن يطلق سراح مساجينهم [...] ولكن القائد لم يطلق سراح مساجينهم، فاستأؤوا من ذلك وقطعوا السبيل على المازين حتى اضطر البريد للذهاب من تطوان إلى طنجة بطريق قبيلة أنجرة". ص 268. كذلك يمكن الاطلاع على بعض هذه الأحداث في:

Bulletin du Comité de l'Afrique Française (BCAF) (Janvier 1903), p. 129.

50 داود، مج 4، ص 144.

51 Charles De Mazade, *Les révolutions de l'Espagne Contemporaine 1854-1868* (Paris: Hachette, 1869), p. 253.

يتحدّث محمد داود عن هذه المعركة بقوله: "وفي الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة 23 مارس 1860 م الموافق 30 شعبان 1276هـ، تحرّك الجيش الإسباني من تطوان ونواحيها في الطريق الموصل إلى الفندق من جهة قطرة بوصفيحة، وكان الإسبان يتنظرون أن يقوم المغريون بمناوشات لعرقلة سير الجيش الإسباني، أما المعركة الكبيرة فكانوا يظنون أنهم لا يخوضونها إلا في ناحية الفندق حيث كانت محلة مولاي العباس، ولكن سرعان ما أخذت القوّات المغربية تظهر أمام الجيش الزاحف، واقترب الجيشان ثم اصطدمت القوّتان، ولحقت المتحاربين خسائر فادحة حول قطرة بوصفيحة". داود، ص 222.

الجديدة، وهو مركز عسكري مهم جداً، فلم يبق أمام المسلمين بعد هذا إلا أن يطلبوا الصلح، فطلبوه يوم 24 مارس، ووقع الاتفاق على أسسه وإمضاؤها في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس 1860، وتقررت الهدنة بين الجانبين⁽⁵²⁾.

وفعلاً، هذا ما نستشفه من رسالة بعثها رئيس الجيش الإسباني أودونيل O'Donnell إلى رئيس حكومته في 25 آذار/ مارس 1860 حول عقد الهدنة مع المغرب وبيّن فيها هدفه العسكري قائلاً: "على أي على كامل الاستعداد للقيام بحركة تكون نتيجتها الحتمية تعضيد الجواز إلى الفندق"⁽⁵³⁾.

ومن خلال هذه الوقائع يظهر جلياً أنّ طريق طنجة تطوان شهد المعارك التي كانت حاسمة في حرب تطوان، ويتجلى من جهة أخرى موقع فندق عين الجديدة في هذه الحرب، فبعد خمسة أيام من معركة وادراس الفاصلة خرج (المفضل أفيلال) في طريقه من تطوان إلى طنجة يوم الخميس 6 رمضان 1276هـ/ 28 آذار/ مارس 1860م واصفاً ما وجده في هذا الطريق وفي موقع عين الجديدة بقوله: "فلما خرجت من المدشر المذكور (مدشر أمزال) [...] فسرنا في وسط القتلى وجياف الخيل حتى عبرنا وادي أكراز فلم نر بعد ذلك إلا جياف الخيل حتى وصلنا عين الجديدة، ومررنا على محلة الخليفة مولاي العباس وهو يسرد الجيوش ويعدّهم واحداً بعد واحد، فجلسنا مقدار ما استرحنا"⁽⁵⁴⁾.

تحدّث كذلك الكتابات الأوروبية عن هذه الوقائع، نخصّ منها مذكرات صحفي فرنسي كان شاهد عيان على هذه المعارك التي دارت رحاها بين تطوان وطنجة⁽⁵⁵⁾. تحدّث بالتفاصيل عن معركة وادراس، وبين الفينة والأخرى يشير إلى فندق عين الجديدة الذي نصبت غير بعيد عنه خيمة لتوقيع الاتفاق بين الجنرال أودونيل والأمير مولاي العباس⁽⁵⁶⁾.

2. بداية القرن العشرين

عرفت الوضعية السياسية والأمنية المغربية، في بداية القرن العشرين، سواء في فترة السلطان عبد العزيز أو أخيه المولى عبد الحفيظ، أزمة عميقة نتيجة اندلاع الثورات والاضطرابات في جلّ جهات المغرب وبالأخصّ في المنطقة الشمالية⁽⁵⁷⁾. هذه الحالة المتردّية أدت إلى اضمحلال هيبة نفوذ المخزن وفشله في حفظ النظام والأمن ما شجّع الدول الأوروبية - وعلى وجه الخصوص فرنسا وإسبانيا - على ترويج فكرة ضرورة الاحتلال والحماية، فما هي الصورة التي كان عليها طريق طنجة تطوان في ظلّ هذه البلبلّة والفوضى ومحاولة إسبانيا اكتساح المنطقة؟ وقعت في هذه المنطقة، في سنتي 1903 و1904، اضطرابات قبلية تمثّلت في الحصار الذي فرضته القبائل الجبلية،

52 داود، مج 4، ص 223.

53 الرسالة طويلة أوردها محمد داود، نقتطف منها هذه الفقرة: "يا صاحب السعادة، إنّ الموفدين من قبل مولاي العباس قد حضروا أمس من جديد إلى معسكري ومعهم رسالة من الخليفة عرفت منها رغباته الشديدة في الصلح، وينصّ فيها على طلبه لعقد محادثة يمكن فيها أن نتوصل إلى اتفاق، وأن نمضي الأسس التي يبنّي عليها الصلح، على أي على كامل الاستعداد للقيام بحركة تكون نتيجتها الحتمية تعضيد الجواز إلى الفندق". المرجع نفسه، ص 232. ونجد إشارة أخرى تؤكد عزم الجنرال أودونيل في المضّي نحو فندق عين الجديدة لاحتلاله في كتاب: Germond de Lavigne, *Les Espagnols au Maroc* (Paris: Hachette, 1889), p. 162.

54 داود، مج 4، ص 221.

55 Charles Yriarte, *Sous la tente-Souvenirs du Maroc: Récits de guerre et de voyage* (Paris: Morizot, Libraire - Éditeur, 1863).

وكان مبعوثاً من صحيفة *Monde illustré* لمشاهدة أطوار حرب تطوان، والقيام بتغطية شاملة لكل الأحداث. كما ألّف شارل يريارت كتاباً آخر في الموضوع نفسه: *Les tableaux de la guerre* (Paris: Alphonse Lemerre, 1870).

56 Yriarte, *Souvenirs du Maroc*, pp. 309-310.

يذكر محمد داود نقلاً عن مصادر إسبانية أنّ هذه الخيمة التي جرت فيها محادثات الصلح كانت بالتحديد قرب وادي بوصفيحة: "وكان اجتماعهم داخل خباء ضرب قرب واد بوصفيحة على بعد بضع كيلومترات من تطوان". داود، ص 197.

57 مثلاً التي سبّنها كل من الروكي بوحمارة والشريف أحمد الريسوني.

وفي مقدّمتها قبيلة بني يدر، على مدينة تطوان. نجم عن هذه الحوادث زعزعة في الوضعية الأمنية وتهديد للقوافل والمسافرين بين طنجة وتطوان.

أمام فشل المخزن في تسيير البلاد بصفة طبيعية وفي حفظ الأمن في ربوعها، تعالت صيحات الأوروبيين بضرورة تنظيم قوّات بوليس مؤقتة "تسمح باستعادة ضوابط الأمن الضرورية" ريثما تنظّم قوات البوليس وفقاً لمقرّرات مؤتمر الجزيرة الخضراء. وفعلاً شكّلت فرق البوليس تحت إشراف فرنسي - إسباني ابتداءً من سنة 1907 تنفيذاً لما فرضته القوى الأجنبية على المخزن في مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906م)⁽⁵⁸⁾. وشرع المدربون الفرنسيون والإسبان في تنظيم تلك الفرق التي بدأت تمارس وظائفها في بداية شهر أيار/ مايو 1908⁽⁵⁹⁾؛ مشكّلين منها طوابير تركز جزء منها في مدينة طنجة وضواحيها، ثم تفرق جزء منها في مدن شمالية أخرى وفي محطّات على طريق طنجة وتطوان. وفي هذا الصدد وتاريخ 17 أيار/ مايو 1911، يخبر وزير الدولة الإسباني سفير فرنسا في مدريد أن 25 فرداً من فرق البوليس يوجدون في فندق "عين الجديدة" حيث أقيم منذ سنة في المكان نفسه مركز للحراسة، ثم أرسل طابور من الفرسان إلى سوق الخميس في أنجرة وطابور آخر إلى وادراس⁽⁶⁰⁾. وحسب بعض المعلومات، أمر وزير الحرب محمد الجياص وجهاء قبيلة أنجرة بتفادي أي هجوم أو اصطدام عسكري بالإسبان حتّى لا يتّخذوه ذريعة للسطو واكتساح الأراضي بهذه المنطقة⁽⁶¹⁾.

ومن خلال هذه المعطيات يتبيّن أن إسبانيا بإشرافها على فرق البوليس كانت حريصة على ضمان الأمن في طريق طنجة تطوان، تمهيداً لاكتساحها منطقة الشمال حسب الاتفاقية المبرمة مع فرنسا لسنة 1904، ففي حزيران/ يونيو 1911 احتلّت العرائش والقصر الكبير⁽⁶²⁾؛ وبعد عقد الحماية الفرنسية على المغرب في 30 آذار/ مارس 1912، استمرت المفاوضات بين فرنسا وإسبانيا، وأسفرت عن إبرام اتفاق 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1912، لتبدأ مرحلة جديدة في السياسة الإسبانية في المنطقة الشمالية وبالتحديد في طريق طنجة تطوان، فما الأحداث التي عرفها الطريق بعد عقد الحماية؟

3. فترة الاحتلال

عرف طريق طنجة تطوان، على طول مساره ومناطقه وقبائله ومحطّاته، أحداثاً عسكرية نتيجة التغلغل الاستعماري الإسباني الذي كان يريد تأمين هذا الطريق، والقضاء على كلّ الثورات فيه، والسيطرة على أهمّ مراكزه وخصوصاً فندق عين الجديدة. وبسبب موقعه الجغرافي الممتاز، مثّل الفندق هدفاً استراتيجياً، سواء للحركات الجهادية أو للمستعمر الإسباني.

ركّزت إسبانيا، في عملية "الباسيفيكسيون" (التغلغل السلمي) وضبط الأمن، على المسالك والطرق الأكثر أهمية، والتي لها طابع تجاري وتربط بين الأسواق، ومنها طريق تطوان نحو طنجة. وأمام هيجان القبائل الشمالية وشنّ هجوماتها على الجيش الإسباني،

58 تطرّق مؤتمر الجزيرة الخضراء في فصله الأول وبنوده الاثني عشر إلى تكوين فرقة البوليس، ومن أجل المزيد من التفاصيل والمعلومات يمكن الرجوع بالآخر إلى كتاب: André Tardieu, *La conférence d'Algésiras* (Paris: Alcan, 1909)؛ كذلك يمكن الرجوع إلى المستندات الدبلوماسية لوزارة الخارجية الفرنسية للاطلاع على المراسلات العديدة حول هذا الموضوع:

Ministère des Affaires Etrangères, *Documents diplomatiques, Affaires du Maroc* (Paris: Imprimerie nationale, 1905-1907).

59 أعطى المخزن موافقته ابتداء من شهر آذار/ مارس 1907 بحسب رسالة الوزير المفوض الفرنسي في مدينة طنجة رينيو إلى وزير الخارجية الفرنسي بيشون. *Documents diplomatiques*, no. 213 (1907), p. 190.

60 "أخبرني وزير الدولة الإسباني أن طابور البوليس المكلف بالأمن خارج المجال الحضري تركز ثلاثون فرداً منه في القصر الكبير وخمسة وعشرون في فندق عين الجديدة، حيث يوجد منذ سنة مركز للحراسة. وبحسب المعلومات الواردة أرسل قائد المائة طابوراً من الفرسان إلى سوق الخميس في أنجرة وطابوراً آخر إلى وادراس". *Ibid.* ينظر:

61 الجريدة الفرنسية: *L'Action française*, 19/5/1911, "Les affaires du Maroc: Zone espagnole,"

62 عبد العزيز التسماني خلو، "احتلال العرائش والقصر الكبير"، *مجلة كلية الآداب بالرباط*، العدد 8 (1982)، ص 48.

قامت السلطات الاستعمارية بإنشاء حاميات ومراكز عسكرية للحراسة على طول الطريق⁽⁶³⁾ تمهيداً للغزو والاحتلال. ومن أولى العمليات التي قامت بها إسبانيا، احتلال مركز اللوزيين يوم الأربعاء 11 حزيران/ يونيو 1913، ويقع في الطريق المؤدي من غرب تطوان نحو طنجة، وهو مدشر صغير من قبيلة الحوز يطلّ على قنطرة بوضيعة، واعتبرته القوّات الإسبانية موقعاً استراتيجياً لربط الاتصال بفندق عين الجديدة نحو طنجة ونحو خميس أنجرة⁽⁶⁴⁾. وبعد ثلاثة أيام، أي يوم 15 حزيران/ يونيو 1913، يخبرنا مؤرخ تطوان محمد داود أنّ المقيم العام الإسباني فليب ألفاو ماندوزا Felipe Alfau Mendoza (15 نيسان/ أبريل 1913-17 آب/ أغسطس 1913)، وفي إطار سياسة تهدئة المسالك والطرق، بعث برسالة تهديد إلى كلّ قبائل المنطقة الشمالية، ومن ضمنها القبائل الموجودة على طريق تطوان طنجة، ومنها أنجرة وادراس وبني يدر وغيرها⁽⁶⁵⁾.

وبتاريخ 9 حزيران/ يونيو 1915، عيّنت الحكومة الإسبانية الجنرال فرانسيسكو غوميز خوردانا Francisco Gomez Jordana مقيماً عاماً بتطوان ما بين 10 تموز/ يوليو 1915 و18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918. قرّر هذا المقيم أن يسلك في منطقة الحماية الإسبانية سياسة التفاهم بدل التصادم، والمساعدة بدل المعاندة⁽⁶⁶⁾. ودخل في مفاوضات مع أبرز زعيم في القبائل الجبلية وهو الريسوني⁽⁶⁷⁾، وانتهت المفاوضات بعقد اتفاق سري بين الطرفين في أيلول/ سبتمبر 1915. وتمّ الإعلان عن هذا الاتفاق والتحالف يوم 24 أيار/ مايو 1916 بهضبة فندق عين الجديدة الاستراتيجية⁽⁶⁸⁾، بعد أن احتلته الفياق العسكرية الإسبانية بقيادة الجنرال خوردا، ثمّ وصل إليه الريسوني "مصحوباً بوجهاء قبائل وادراس وبني يدر وبني حزم وبني عروس وبني كرفط وجبل حبيب الذين أكدوا تعاونهم مع إسبانيا"⁽⁶⁹⁾.

كانت إسبانيا ترمي، من خلال هذا الاتفاق مع الريسوني، إلى تسهيل سيطرتها على المجال الجغرافي للمنطقة الغربية، وضمان سلامة الطرق والمواصلات التي تكفل بها الريسوني⁽⁷⁰⁾، وخصوصاً طريق طنجة تطوان الذي كثرت فيه بؤر التوترات وهجمات القبائل وأصبحت قنوات الاتصال شبه معدومة⁽⁷¹⁾. فبفضل الريسوني جرى إنشاء خط التلغراف في الطريق بين تطوان وطنجة مروراً بفندق عين

63 في هذا الصدد، ينظر:

Armatte, "Les opérations militaires au Maroc," *Questions diplomatiques et coloniales*, tome XXXVI, 1913 (juillet - décembre), p. 33.

64 "وبتاريخ يوم الأربعاء 6 رجب 1331هـ الموافق 11 حزيران/ يونيو 1913م جهز الجنرال ألفاو جيوشه بالعدد والغد، وخرج من تطوان وضواحيها، في الطريق الذاهب غرب تطوان نحو طنجة، واحتلّ مركز اللوزيين، وهو مدشر صغير من قبيلة الحوز الصديني، واقع في ربوة مشرفة على الطريق المذكور، ويبعد عن أسوار تطوان بكيلومترات عددها دون العشرة". داود، مج 11، ص 163. راجع تفاصيل هذه المعركة في: محمد بن عزوز حكيم، *الشريف الريسوني والمقاومة المسلحة في شمال المغرب*، ج 1 (الرباط: مطبعة الساحل، 1981)، ص 102-104.

65 "فإذا أنتم خضعتم وأذعنتم للطاعة، وطلبتم الأمان لأنفسكم وأولادكم وأموالكم فاسعوا فيه، تساعدون عليه ونحن مستعدون للأخذ بأيديكم ودفع الأضرار عنكم [...] وإن أنتم تماديتم على ما أنتم عليه من التروغ والعصيان، والعتو والطغيان، فعاقبتكم لا تحمد، والنكال بكم لا يجهل ولا يجحد، ولا نكف عنكم حتى نخرج عن آخركم". داود، ص 164.

66 المرجع نفسه، ص 170.

67 يقول المؤرخ الإسباني فيغيلاس في هذا الصدد ما يلي: "سلكت إسبانيا سياسة صداقة مع الريسوني، لأنّ الريسوني هو الرجل الوحيد الذي كان في إمكانه أن يجعل السلم في المنطقة شيئاً حقيقياً، وكان على بينة ممّا كانت تريده إسبانيا، فكان يستغل ذلك لصالحه". بن عزوز حكيم، ص 122.

68 Estado Mayor Central del Ejército, Servicio Historico Militar, tome 3, p. 817.

69 بحسب تلغراف ورد في: "El Año politico," Année XXII, 1916, pp. 156, 173. وكذلك ينظر الجريدة الفرنسية: *La Presse*, 16/5/1916.

70 جاء في البند الثالث من الاتفاقية ما يلي: "إن ضمان الأمن وحرية المواصلات في القبائل سيكون على عاتق محلة الشريف الريسوني النظامية". بن عزوز حكيم، ج 1، ص 127.

71 كان من بين متطلبات الاتفاق هجوم بري مشترك تقوده إسبانيا انطلاقاً من سبتة في الطريق المتّجه نحو طنجة، وهجوم يقوده الريسوني من فندق عين الجديدة في اتجاه خميس أنجرة نحو المرتفعات المطلّة على سبتة من جهة الغرب.

Edmundo Seco, "Memoria sobre la Kabila de Anyera, souk el jhemis," 1927, p. 441,

نقلًا عن: سعيد أغزيل، "قبيلة أنجرة والاستعمار الإسباني: 1912-1956"، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عبد المالك السعدي بتطوان، 2019.

الجديدة⁽⁷²⁾؛ ثم كان الفندق في نظر إسبانيا مركزاً استراتيجياً، تستطيع من خلاله الربط بين الغرب والشرق وذلك عبر تطوان من جهة، وطنجة والعرائش من جهة أخرى⁽⁷³⁾.

وبالنسبة إلى سلامة الطرق والأمن فيها، فقد كان من ثمرات هذا الاتفاق الثنائي بين الريسوني وخوردانا، كما يقول محمد داود، أن "مضت الأيام والشهور، والأمن سائد والهدوء مستتب في تطوان ونواحيها"⁽⁷⁴⁾. وللبرهنة على أمن الطرق وسلامتها بين تطوان ومدن أخرى قام الجنرال خوردانا برحلة من تطوان إلى الناحية الغربية وزار مدنها الثلاث: أصيلا، والعرائش، والقصر الكبير ماراً بالقبائل والمحطات الموجودة على الطريق ومنها فندق عين الجديدة⁽⁷⁵⁾.

مضت فترة زمنية على هذه الوضعية حتى الثاني من شباط/ فبراير 1919 عندما عينت الحكومة الإسبانية الجنرال برينغر Dámaso Berenguer مقيماً عاماً بتطوان (1919-1922) خلفاً للجنرال خوردانا. سلك المقيم العام الجديد سياسة مخالفة لسلفه تعتمد على أسلوب القوة والعنف، فقرر احتلال مجالات القبائل الجبلية وإخضاعها لسلطة الاحتلال واسترجاع السلطة العملية لإسبانيا على المنطقة الإسبانية وقبائلها وطرقها ومسالكها من يد الريسوني؛ وبذلك "دخلت الحالة بتطوان وبقبائلها الجبلية في طور جديد"⁽⁷⁶⁾.

كان طبيعياً أن تؤثر هذه الوضعية الجديدة في طريق طنجة تطوان ومحطاته ومراكزه الاستراتيجية وبالأخص فندق عين الجديدة. ونظراً إلى الأهمية التي كانت توليها إسبانيا لهذا الموقع الاستراتيجي للفندق في تأمين الاتصالات بين تطوان وطنجة⁽⁷⁷⁾، وضمان مرور الجنود والأسلحة والسلع إلى العرائش وتطوان أصبح هدف برينغر هو استرجاع التواصل بين تطوان وطنجة والعرائش من خلال التحكم في فندق عين الجديدة من دون نفوذ الريسوني وحمايته. أمام هذا الوضع الجديد والقصف الشديد للفندق⁽⁷⁸⁾، انسحب منه الريسوني وانتقل إلى عاصمته تازروت، واحتلت القوات الإسبانية بقيادة برينغر الفندق يوم 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1919⁽⁷⁹⁾.

72 Estado Mayor Central del Ejército, Servicio Historico Militar, tome 4, p. 872.

73 لطالما أغرى فندق عين الجديدة القوات الإسبانية، وكان في نظرهم مركزاً أساسياً للاتصالات بين تطوان وطنجة. ينظر: Pablo La Porte, "El Desastre de Annual y la Crisis de la Restauración en España (1921-1923)," Memoria Para Optar Al Grado De Doctor, Universidad Complutense De Madrid, Madrid, 1997, p. 60.

74 داود، مج 11، ص 170.

75 تكلم محمد داود عن هذه الرحلة بقوله: "وفي فاتح أكتوبر سنة 1917 (14 ذي الحجة 1335) ركب خوردانا جواده وغادر مدينة تطوان ومعه رجال حاشيته راكبين خيولهم، ومعهم الشريف مولاي الصادق بن ريسون وثلاثمائة من فرسان الإسبان، ووصلوا إلى قنطرة بوصفيحة، فاستقبلهم من جانب الريسوني ابن عمه مولاي الحسين، وبدر الدين البقالي والعايشي الزلال، ومشوا في ركابهم إلى فندق عين الجديدة، قلب قبيلة وادراس، وهناك استقبلهم زعيما القبيلة محمد بن حمان وعبد الكريم ولد المعلم، وفي المحل المسمى ظهر السلّة، ترك المقيم العام فرسه، وركب سيارته، وتابع رحلته إلى مدينة أصيلا، ثم العرائش والقصر الكبير". داود، مج 11، ص 173.

76 المرجع نفسه، ص 175.

77 G. Boussagol, "Notes espagnoles," *Les Langues Modernes*, Bulletin Mensuel, no. 2 (Mars - Avril 1920), p. 145;

وكذلك يمكن الرجوع إلى مقال:

Victor Monge (Vice - Consul de France à Tétouan), "Ceuta, son Commerce, son Port, son Avenir," *Revue de la Marine Marchande*, no. 50-51 (Novembre - Décembre 1919), p. 594.

78 أخبرتنا جريدة فرنسية عن طريق مراسلها في المغرب بأنه: "لم تدم مقاومة الأهالي لمدة طويلة نظراً إلى القصف الشديد من المدفعية والطائرات". ينظر: "C'est la paix," *Le XIX^e siècle* (7 octobre 1919).

وعن هذه العمليات العسكرية للجيش الإسباني، ينظر: *Bulletin périodique de la presse espagnole*, no. 57 (15 octobre 1919), p. 2.

79 حصل ذلك بعد مواجهات عسكرية بين القوات الإسبانية والقبائل الجبلية تحدثت عنها بعض الصحف الفرنسية، جاء في إحداها: "يوم 21 آذار/ مارس 1919، هاجمت قوات الريسوني الجيش الإسباني عند عبوره واد بوصفيحة في طريقه إلى فندق عين الجديدة، وأسفرت هذه المواجهات عن خسائر كبيرة تكبدها الإسبان في الأرواح والعتاد". *Le Petit Parisien*, no. 8 (Avril 1919). الخبر نفسه أكدته التاييمز الإنكليزية ونشرته جريدة:

"L'Espagne est en guerre contre Raissouli," *L'ouest-Eclair*, 1/4/1919.

أولت الصحف الإسبانية اهتمامًا خاصًا لهذا الحدث واعتبرته "نصرًا كبيرًا" حققته فيالقها العسكرية وأسفر عن نتائج إيجابية لوضعية إسبانيا في شمال المغرب، ومن هذه الصحف نقتطف فقرة تردّدت على أعمدتها: "نعتبر فندق عين الجديدة مركزًا استراتيجيًا ذا أهمية قصوى، لأنه يؤمّن الاتصالات والعلاقات بين طنجة، والعرائش، وتطوان، وسبتة. ولسنوات طويلة كان أعداؤنا، وبالأخصّ قائدهم [الريسوني]، يعتبرونه حصنًا منيعًا لا يمكن اختراقه، فاستطعنا بفضل قواتنا غرس رايتنا في هذا المبنى القديم 'عين الجديدة'، وحققنا نصرًا ماديًا ومعنويًا" (80).

فعلاً، اعتبر دخول أكبر الجزرالات الإسبان، وعلى رأسهم برينغر وسيلفيستري (81)، إلى فندق عين الجديدة نصرًا معنويًا له رمزيته التاريخية التي تحيل على أحداث تطوان لسنة 1860 والتوقيع على اتفاقية الصلح بين ليوبولد أودونيل ومولاي العباس (82).

يتمثل هدف الحكومة الإسبانية، من خلال هذه العمليات العسكرية، في ضمان الاتصالات بين أهم مدينتين في شمال المغرب، طنجة وتطوان، فشرعت في القيام بعملية تمشيط لطريق تطوان طنجة لفتح أمام المبادلات التجارية.

الصورة (1)

احتلال فندق عين الجديدة



المصدر:

"Ahmed Al - raisuli Fondak Ain - yedida rio llobregat desbordamiento cornella manresa solsona 1919,"
Todocoleccion, accessed on 28/6/2022, at: <https://bit.ly/3OGMDC9>

كما نقلت جرائد فرنسية أخرى مقالات عن صحف إسبانية اعترفت بالأمر الواقع: "من خلال هذه المواجهات يتبين أنّ الريسوني سيصمد لمدة قبل أن يغادر فندق عين الجديدة، ولهذا ينبغي للرأي العام الإسباني معرفة أن احتلال الفندق ليس بالأمر الهين".

Bulletin Quotidien de Presse Etrangère, no. 1257, 22/9/1919.

80 "Diario Universal," Bulletin périodique de la presse espagnole, no. 58 (30 octobre 1919), p. 2.

81 هو مانويل فرنانديز سيلفيستري، جنرال عسكري إسباني، ولد في مدينة El Caney بكوبا، في 16 كانون الأول/ديسمبر 1871، توفي بشمال المغرب في منطقة الريف على يد المقاومين الريفيين بزعامة الأمير عبد الكريم الخطابي في معركة أنوال في 22 تموز/يوليو 1921، وكان القائد العام لسبتة (1919-1920) وملييلية (1920-1921)، في أثناء حرب الريف.

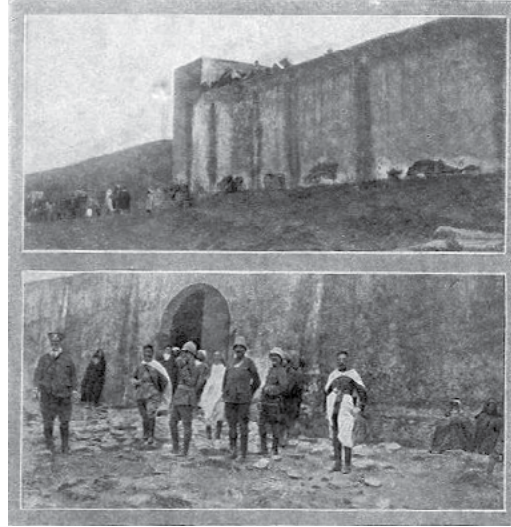
82 La Porte, p. 127.

وصرّحت إحدى الصحف الإسبانية: "حقّق جيشنا نصرًا كبيرًا يستحقّ كل الإعجاب والتقدير".

"Les opérations espagnoles au Maroc," Journal des débats politiques et littéraires (8 octobre 1919).

الصورة (2)

أفراد الجيش الإسباني أثناء احتلال فندق عين الجديدة



المصدر:

"Operaciones militares en Marruecos: Fondak de Ain Yedida – 1919," *Todocoleccion*, accessed on 28/6/2022, at: <https://bit.ly/3bxUoNg>

في سياق هذه الخطة الاستراتيجية اتجه الجيش الإسباني تحت قيادة بيرينغر لاحتلال المناطق الشمالية والسيطرة الشاملة عليها⁽⁸³⁾. غير أنّ الهزيمة التي مني بها الجيش الإسباني في معركة أنوال سنة 1921 كان لها وقع كبير على هذه الخطط العسكرية. عرفت إسبانيا انقلاباً عسكرياً بقيادة الجنرال بريمو دي ريفيرا Primo de Rivera، هذا الأخير أحدث تحوُّلاً في هذه الخطط، فأمام تحركات القبائل ومقاومتها⁽⁸⁴⁾، قام بتعزيز مراكز المراقبة بفرق عسكرية إضافية وذلك لضمان تأمين الطريق والمحافظة على التواصل بين تطوان وطنجة والعرائش⁽⁸⁵⁾، فتصدّت القوّات الإسبانية لهجومات المقاومين لأنها كانت تدرك أنّ النجاح في عملياتها العسكرية، وخاصة على مستوى فندق عين الجديدة، له أهمية وسيكون له أثر إيجابي في تفرقة مقاومة القبائل. ومع مطلع سنة 1925 نجحت إسبانيا في كبح جماح المقاومة القبلية، ومن ثم تأمين الطريق بين تطوان وطنجة ومراكزه الاستراتيجية.

وفي ختام هذه الدراسة تتوضح لنا وضعية طريق طنجة تطوان وأهميته قبل الحماية الإسبانية على شمال المغرب وفي أثنائها، ففي القرن التاسع عشر وإلى حدود سنة 1912، اعتبر طريق طنجة تطوان من الطرق الرئيسة في المغرب. كانت تستعمله القوافل لنقل البضائع والتبادل التجاري، ويقطعه المسافرون لأغراضهم الشخصية أو للقيام بمهمات كلّفتهم بها الدولة المغربية. وقد مرّ به أعضاء المخزن وفي مقدّمتهم السلاطين أثناء تفقّدهم لأحوال المنطقة الشمالية من المغرب⁽⁸⁶⁾.

83 "Au Maroc Espagnol," *L'Homme Libre*, 7/10/1919.

84 تخبرنا الصحف الصادرة في هذه الفترة أن ما يقرب من ألفي مقاوم سيطروا على فندق عين الجديدة ما أثر في الاتصالات بين تطوان وطنجة. "Les Communications de Tétouan à Tanger menacées," *Le Petit Journal*, 12/9/1924.

85 يعتبر جهاز المراقبة إحدى المؤسسات التي اعتمدت عليها الإدارة الإسبانية لتسهيل عملها الاستعماري في المنطقة الشمالية.

86 مثلاً زيارة السلطان الحسن الأول لمدينة تطوان سنة 1889 ومغادرتها إلى مدينة طنجة في رحلة العربي بن علي المشرفي، تمهيد الجبال وما وراءها من المعمور، وإصلاح حال السواحل والنفور، تحقيق إدريس بوهليلة (تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، 2016).

علاوة على ذلك، استعمله الرحّالة والمستكشفون الأوروبيون، وتركوا كتابات وفيرة وصفوا فيها الطريق من الناحية الجغرافية والطبيعية والسكانية وغيرها، الأمر الذي لا نصادفه في الكتابات المغربية التي لا نجد إلا في بعضها شذرات قليلة متفرقة هنا وهناك.

ولا يمكن الحديث عن طريق طنجة وتطوان من دون الحديث عن فندق عين الجديدة الذي يوجد في منتصف الطريق، حيث كان المحطة الأساس لمبيت المسافرين ومركزاً استراتيجياً مهماً للاتصال بين المدينتين شكّل هدفاً للاحتلال الإسباني، واعتمدت عليه القبائل الشمالية في مقاومتها لهذا الاحتلال.

أما من الناحية الأمنية، فقد خضع طريق طنجة تطوان، كغيره من الطرق المغربية، لفترات من المدّ والجزر حسب قوة السلطة المركزية أو تهاونها وضعفها. إلا أنه في مطلع القرن العشرين - كما لاحظنا - تدهورت الوضعية الأمنية في المنطقة الشمالية نتيجة في الأساس للتدخل الأجنبي واختراقه المجال المغربي، الأمر الذي كان له انعكاس وخيم على أمن القوافل والمسافرين وسلامتهم في هذا الطريق. ونتيجة لذلك لم يعد بعض المسافرين يستعملون الطريق البري بين طنجة وتطوان، وفَضّلوا استخدام السفن؛ هذا ما يشير إليه ألكسندر جولي سنة 1905 في مونوغرافيته عن مدينة تطوان بقوله: "عوض المجازفة بأنفسهم في هذا الطريق الجبلي غير الآمن، بدأ بعض المسافرين من أوروبيين ويهود ومغاربة يفضّلون السفر من طنجة إلى تطوان عبر الطريق البحري على متن السفينة الإنجليزية من شركة بلاند Bland، التي تبحر مساء كل يوم سبت من طنجة وتصل إلى ميناء مرتين Martine صباح يوم الأحد، وتغادره بعد منتصف اليوم وتنزل المسافرين في المساء بطنجة؛ أو على متن إحدى السفن التابعة للشركات الفرنسية باكي Paquet التي تبحر كلّ أسبوعين، أو الشركة تواش Touache التي تبحر كلّ يوم ثلاثاء؛ وفي بعض الأوقات يبحرون على متن سفن إيطالية وإسبانية كلما رست بين الفينة والأخرى في الميناء"⁽⁸⁷⁾.



References

المراجع

العربية

- أشطار، جمال الدين العمراني. "طنجة بين سنتي 1900-1912". رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا. غير منشورة. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1996.
- اغزيل، سعيد. "قبيلة أنجرة والاستعمار الإسباني 1912-1956". أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ. غير منشورة. كلية الآداب، جامعة عبد المالك السعدي بتطوان، 2019.
- آفا، عمر. **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر: سوس (1822-1906)**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1988.
- بوليفة، عبد العزيز. "وضعية طريق 'طنجة تطوان' في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20". ضمن أعمال ندوة: تطوان قبل الحماية (1860-1912). 12-14/11/1992.
- التلمساني، محمد بن مرزوق. **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**. تحقيق د. ماريا خيسوس بينغرا. الجزائر: المكتبة الوطنية الجزائرية، 1981.
- الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. **معلمة المغرب**. سلا: مطابع سلا، 1989.
- حكيم، محمد بن عزّوز. **الشريف الريسوني والمقاومة المسلحة في شمال المغرب**. الرباط: مطبعة الساحل، 1981.
- الخديمي، علّال. "النزاييل والمواصلات والتدخل الأجنبي في المغرب خلال القرن التاسع عشر". **هسبريس تمودا**. العدد 31 (1993).
- خلوق، عبد العزيز التمساني. "احتلال العرائش والقصر الكبير". **مجلة كلية الآداب بالرباط**. العدد 8 (1982).
- _____. "الظروف العامة للصوصية في مغرب القرن التاسع عشر ومشكلة الأمن بطنجة". **مجلة دار النيابة**. العدد 1 (1984).
- داود، محمد. **تاريخ تطوان**. الرباط: دار أبي رقراق، 2013.
- دو فوكو، شارل. **التعرف على المغرب 1883-1884**. ترجمة المختار بلعربي. الدار البيضاء: دار الثقافة، 1999.
- الرهوني، أحمد بن محمد. **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**. تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي. تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمير، 2003.
- السبتي، عبد الأحد. **بين الزطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار**. الدار البيضاء: دار توبقال، 2009.
- السعود، عبد العزيز. **تطوان في القرن الثامن عشر: السلطة، المجتمع، الدين**. تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمير، 2007.
- العايشي، المريني. **النضال الجبلي**. [د. م.]: [د. ن.]: [د. ت.].
- المشرقي، العربي بن علي. **تمهيد الجبال وما وراءها من المعمور، وإصلاح حال السواحل والثغور**. تحقيق إدريس بوهليلة. تطوان: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، 2016.
- المشرقي، محمد بن مصطفى. **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية**. تحقيق إدريس بوهليلة. الرباط: منشورات وزارة الأوقاف، 2005.

الأجنبية

- Armatte. "Les Opérations Militaires au Maroc." *Questions diplomatiques et coloniales*. tome XXXVI (Juillet-Décembre 1913).
- Baviera, Julio Cervera. *Expedición geográfico-militar al Interior y Costas de Marruecos: Setiembre, Octubre, Noviembre, y Diciembre de 1844*. Barcelona: Establecimiento Tipografico de Fidel Giro, 1885.
- Boussagol, G. "Notes espagnoles." *Les Langues Modernes*. Bulletin Mensuel. no. 2 (Mars - Avril 1920).
- Beaumier, Auguste. *Itinéraire de Mogador à Maroc et de Maroc à Saffi*. Paris: Imprimerie de E. Martinet, 1868.
- Biarnay, Samuel. "Un cas de régression vers la coutume berbère chez une tribu arabisée." *Archives Berbères*. 1.2-4 (1915-1916).
- Bleicher, Dr. *Un Voyage au Maroc*. 1875.
- Braithwaite, Capitaine. *Histoire des révolutions de l'empire de Maroc*. Amsterdam: Chez Pierre Mortier Libraire, 1731.
- Brives, Abel. *Voyages au Maroc (1901-1908)*. Alger: Typographie Adolphe Jourdan, 1909.
- Bulletin du Comité de l'Afrique française (BCAF)* (Janvier 1903).
- Charmes, Gabriel. *Une ambassade au Maroc*. Paris: Calmann Lévy, 1887.
- Cousin, Albert & Daniel Saurin. *Le Maroc*. Paris: Librairie du Figaro, 1905.
- Decugis, Dr. "Relation d'un Voyage dans l'Intérieur du Maroc." *Bulletin de Société de Géographie*. 6^{ème} série. vol. 16 (Juillet - Décembre 1878).
- De Lavigne, Germond. *Les Espagnols au Maroc*. Paris, 1889.
- Didier, Charles. "Le Maroc: Tétouan." *Revue des Deux Mondes*. tome 8 (1 Octobre 1836).
- _____. *Promenade au Maroc*, Paris: Jules Labitte, 1844.
- De Mazade, Charles. *Les Révolutions de l'Espagne Contemporaine 1854-1868*. Paris, 1869.
- Dry, A. "Vers l'Occident: Gibraltar et le Nord du Maroc." *La Revue Hebdomadaire*. 3^{ème} année, tome XI (Octobre 1899).
- El Moudden, Abderrahman. "Exploration et Pénétration: Un Siècle d'itinéraires dans le Couloir de Fès - Taza (1805-1911)." *Hespéris-Tamuda*. vol. XXII (1984).
- Estado Mayor Central del Ejército, Servicio Historico Militar. *Historia de las campañas de Marruecos*. Madrid: Servicio Histórico Militar, 1947.
- Gentil, Louis. *Dans le Bled es Siba: Explorations au Maroc*. Paris: Masson et Co. Éditeurs, 1906.
- Godard, Léon. *Le Maroc, Notes d'un Voyageur, 1858-1859*. Alger: Impr. A. Bourget, 1859.
- _____. *Description et histoire du Maroc*. Paris: C. Tanera, 1860.
- Joly, Alexandre "Le siège de Tétouan par les tribus des Djebala 1903-1904." *Archives marocaines*. vol. 3 (1905).
- _____. "Tétouan." *Archives Marocaines*. vol. 4 (1905).

- La Porte, Pablo. "El Desastre de Annual y la Crisis de la Restauración en España (1921-1923)." Memoria Para Optar Al Grado De Doctor. Universidad Complutense De Madrid. Madrid, 1997.
- Meakin, Budgett. *The land of the Moors*. London: Swan; New York: Macmillan, 1901.
- Ministère des affaires étrangères. *Documents diplomatiques, Affaires du Maroc*. Paris: Imprimerie nationale, 1905-1907.
- Monge, Victor. "Ceuta, son Commerce, son Port, son Avenir." *Revue de la Marine Marchande*. no. 50-51 (novembre - décembre 1919).
- Résidence générale de la République française. *Tanger et sa Zone*. Series villes et tribus du Maroc. Paris: Ernest Leroux, 1921.
- Renou, Émilien Jean. *Description Géographique de l'Empire du Maroc*. Paris, 1846.
- Riuz, Ricardo. "La Kabila de Uadras." *Boletín oficial de la zona de influencia española en Marruecos*. no. 3 (10-25/5/1913).
- Tardieu, André. *La conférence d'Algésiras*. Paris: Alcan, 1909.
- Ventosa, Evaristo. *Historia de la Guerra de Africa*. Barcelona: Libreria De Salvador Manero, 1859.
- Wolf from, Gustave. *Le Maroc ce Qu'il Faut en Connaître*. Paris, 1906.
- Yriarte, Charles. *Les tableaux de la guerre*. Paris, 1870.
- _____. *Sous la Tente, Souvenirs du Maroc, Récits de Guerre et de Voyage*. Paris, 1863.